عبد الناصر وحركة التحرر الافريقية

بقلم حسين شعلان

مثلما كانت وفاة جمال عبد الناصر خسارة فادحة للشعب المصري وحركة التحرر الوطني العربية ، فانها ايضا خسارة كبيرة لحركة التحرر الوطني الافريقية . وصحيح كذلك انها خسارة فادحة لحركة التحرر الوطني العالمية العامة المعادية للاستعمار والمناضلة من اجل السلام العادل والتقدم الاجتماعي .

ونادرا ما يحدث في التاريخ ، ان تتجاوز جماهيرية وتأثير زعيم وطني حدود «الوجود القومي» بالقدر من الفعالية والايجابية التي تجاوزتها جماهيرية وتأثير جمال عبد الناصر على حركة التحرر الوطني العالمية وجزء منها حركة التحرر الافريقية المعاصرة . وانه ليصعب على اي دارس للشؤون الافريقية ان يميز بوضوح بين دور وتأثير مصر .. وبين دور وتأثير عبد الناصر ، على حركة التحرر الافريقية ، في الفترة ما بين قيام الثورة المصرية ١٩٥٢ وبين وفاة جمال عبد الناصر ، حيث ارتبط الاسمان ليصبحا وجهين « لعملة » واحدة : علاقة الحركة الوطنية التقدمية في مصر بالحركة الوطنية التحررية في افريقيا .

ووضع القضية على هذه الصورة ، يسعى الى تجنب انكار دور الفرد او «الزعيم» في التاريخ والمجتمع، بقدر ما يسعى الى تجنب مخاطر تطرف المبالغة في هذا الدور الى الحد الذي ينكر معه دور الظروف الموضوعية المحيطة فضلا عن منطق حركة التاريخ نفسه ودور الشعوب فيها . ودوافع محاولة تجنب ذلك كله ، تعود الى حقيقة ان هناك كثيرا من الملابسات المعقدة واعتبارات المناخ العاطفي .. التي يمكن ان تؤدي الى الوقوع في هذا المحذور .

وتتناول هذه السطور دور «الناصرية» في حركة التحرر الافريقي ، في اطار فهم يرى ان «الناصرية» ليست عقيدة تحدد معالم نظام اجتماعي ، وانما هي «اسلوب» في العمل السياسي ـ في السلطة وخارج اطار السلطة ـ حاول ان يدرك واقع ومعطيات العصر من زاوية رؤية حركة التحرر الوطني . و«عبد الناصر» هنا لم يكن وحدة وانما كان ـ مع غيره ـ نتاجا لظاهرة العالم الثالث ، وان كانت له من المبادرات والتأثير ما يصنعه ـ بحق ـ كأبرز نتاج ايجابي لهذه الظاهرة .

مفهوم افريقيا .. في البدايات الاولى :

ظل «الفكر التقليدي» في مصر يدور في اطار نظرية «المجال الحيوي» في رؤيته للعلاقة بين مصر ودورها وبين افريقيا . اما «الفكر الوطني» المصري ، فقد كانت افريقيا في نظره ، موقعا من مواقع صراع القوى الوطنية وبين الاستعمار ، وكانت معظم البرامج الوطنيه في ذلك الوقت ، تدعو الى الوقوف الى جانب القوى الوطنية في هذا الصراع . لكنها على اية حال ظلت تدور في اطار التأييد السياسي والادبي بين المهتمين بقضايا السياسة الخارجية دون ان يكون لها صدى جماهيري مؤثر . وقد ركز الفكر الوطني لفترة طويلة ، على مفهوم «وحدة وادي النيل» دون ان يمتد بنظرته الى ما هو ابعد» كنتيجة لالحاح وضغط « القضية الوطنية » ومشاغلها . لكن هذا الفكر الوطني لم يستجب على الاطلاق لفكرية «المجال الحيوي» بأي شكل .

ففي بداية عمل حركة الضباط الاحرار بقيادة جمال عبد الناصر ، اشارت منشوراتها الى افريقيا من زاوية ضرورة اسقاط الاستعمار وأعوانه في وادي النيل . وأكدت انمصر لا تسعى الى اهداف عدوانية بل انها تطلب الحرية والاستقلال الكامل وترفض التحالف ومشروعات الدفاع مع الكتلة الاستعمارية وتتمسك بالحياد الصريح في السياسة الخارجية .

لكن كتاب «فلسفة الثورة» لجمال عبد الناصر ، يشهد تطورا ملحوظا في هذا المجال . فقد حدد اسس صياغة جديدة لعلاقات نضالية في المعركة المعادية للاستعمار . ففي كتاب «فلسفة الثورة» ص ٦٣ — ٨١ وما بعدها ، يقول عبد الناصر : «اننا لن نستطيع بحال من الاحوال — حتى لو اردنا — ان نقف بمعزل عن الصراع الدامي المخيف الذي يدور اليوم في اعماق افريقيا بين خمسة ملايين من البيض ومائتي مليون من الافريقيين» .

ولا يحدد عبد الناصر علاقة مصر الثورة بافريقيا ومسئولياتها تجاهها ، من اعتبارات عاطفية وانما بناء على فهم : **اولا** : ان مصر لا تستطيع ان تتجاهل ما يحدث على ارض القارة «لسبب هام وبديهي هو اننا في افريقيا» . **ثانيا** : ان موقع مصر ومستوى تطورها ، له طابعه المتميز والخاص . فمصر «تحرس الباب الشمالي للقارة» وهي التي تعتبر «صلتها بالعالم الخارجي كله» . **ثالثا** : ان الارتباط بين القضية الوطنية المصرية والقضية المصرية السودانية يؤكد ضرورة متابعة ما يجري على ارض القارة التي تمتد حدود «السودان الحبيب الشقيق .. الى اعماق افريقيا ويرتبط بصلات الجوار مع المناطق الحساسة في وسطها» .

نستطيع ان نلمس بسهولة هنا استمرار مفهوم افريقيا في اطار «وادي النيل» ، ولكنه هذه المرة يقوم على اسس كلية وشاملة . بل ويحدد دور مصر حين يقول «ولسوف تظل شعوب القارة تتطلع الينا» — (فلسفة الثورة) .

لقد اصبحت ثورة يوليو ١٩٥٢ بقيادة عبد الناصر ، وهي نتاج ظروف المد الثوري العالمي بعد الحرب الثانية ثم انتصار ثورة الصين وحصول عدد من بلدان آسيا على استقلالها السياسي — كظروف خارجية مواتية — ثم نتيجة لتطورات الصراع الداخلي في مصر الى الحد الذي لم يعد معه الشعب على استعداد لتقبل استمرار الحكم الاستعماري — كظرف داخلي موات — ، نقول ان ثورة يوليو ١٩٥٢ بقيادة عبد الناصر .. اصبحت بانجازاتها التي حققتها بعد ذلك ، تشكل عنصرا اساسيا وهاما من الظاهرة الخارجية الملائمة لتعاظم الحركة الوطنية في افريقيا ، له فعاليته الخاصة وطابعه الخاص .

وذلك لا يعني بالطبع ، الزعم بأن شعوب افريقيا وقواها الوطنية لم تعرف الثورة والنضال الوطني ضد الاستعمار ، الا كرد فعل لثورة يوليو وانجازاتها . ذلك ان جذور الثورة والكفاح المعادي للاستعمار والتخلف كانت —ولا تزال— قائمة في المجتمع الافريقي .

القهر .. ليس ابديا

لقد شهدت سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية تطورا ملحوظا في تصاعد الحركات الوطنية الساعية لاستقلال بلادها . لكن هذه السنوات ، لم تشهد قبل ثورة يوليو ، انتصارا لاي من الحركات الوطنية في افريقيا .

ان انتصار ثورة يوليو ٥٢ في بلد افريقي ضد نظام رجعي يستند الى الاستعمار ، قد حطم بشكل عملي اسطورة ابدية القهر الاستعماري للقارة . هذه الاسطورة التي روجت لها اجهزة الدعاية والاعلام والتعليم الموالية للاستعمار . وكان لذلك آثاره الهائلة على تطورات حدة الصراع الوطني ومجراه في البلدان الافريقية . ففي كينيا —مثلا— شهدت منطقة شرق افريقيا انعطافة هامة في تاريخها الوطني بعد مرور شهور ثلاثة على قيام ثورة يوليو وانتصارها في مصر . فقد اضطرت بريطانيا امام تعاظم الحركة الوطنية الكينية ، ان تعلن حالة الطوارىء في البلاد وأن تلقي القبض على آلاف من الوطنيين ، وأن تشن في نفس الوقت سلسلة من الغارات على قرى الافريقيين . وباتت الصحافة البريطانية تتحدث عن الذعر الذي ساد بين جنود الاحتلال البريطاني في كينيا من ثوار حركة «الماو ماو» . وفي تونس ومراكش سادت المظاهرات الوطنية في اواخر عام ١٩٥٢ وطوال عام ١٩٥٣ ، تطالب بالحرية وتهتف لثورة القاهرة . وتعاظمت الاضرابات الوطنية في مراكش في اغسطس ١٩٥٣ الى الحد الذي اضطرت معه سلطات الاحتلال الفرنسي الى مواجهة مد الحركة الوطنية بنفي الملك محمد الخامس الى مدغشقر . فاتسع نطاق المظاهرات الوطنية ضد وجود الاحتلال الفرنسي وخاصة في ١٩٥٤ حتى تكوّن جيش وطني في الريف المغربي في عام ١٩٥٥ ثم نالت المغرب استقلالها في ١٩٥٦ .

وفي تونس سلمت السلطات الفرنسية بالاستقلال الذاتي للبلاد في ١٩٥٤ وتشكلت اول حكومة وطنية حققت استقلال البلاد التام في ١٩٥٦ .

واندلعت الثورة الوطنية المسلحة في الجزائر في نوفمبر ١٩٥٤ تطالب بحرية واستقلال الجزائر .

وفي نيجيريا وغانا بغرب افريقيا ، اتسع نطاق الاضرابات الوطنية العامة التي تعرضت لرَصاص سلطات الاحتلال البريطاني في عامي ١٩٥٣ — ١٩٥٤ . وعظم نضال الحركة الوطنية في غانا حتى نالت استقلالها في ١٩٥٧ بعد انتصار ثورة يوليو في معركة السويس .

لقد دخلت حركة التحرر الوطني الافريقية منذ انتصار ثورة يوليو مرحلة جديدة من مراحل تطورها . وعت فيها — بالهام الثورة المصرية — ان تولي الوطنيين السلطة السياسية في بلادهم شرط اساسي لتحقيق استقلال البلاد . فانتقل الصراع بين الوطنيين الافريقيين وبين القوى الاستعمارية ، من اطار مفهوم «المشاركة في

السلطة» الى اطار مفهوم تولي السلطة بشكل كامل ومنفرد .

وقد تحقق ذلك بالفعل ، عام ١٩٥٨ ، في اطار الاستقلال الذاتي لمعظم دول «المجموعة الفرنسية» . وترأس الافريقيون الحكومات في هذه الدول بعد ان كان ذلك ممنوعا من قبل .

موقفان تاريخيان .. لعبد الناصر :

سجل عبد الناصر بعد انتصار ثورة يوليو ، موقفين تاريخيين في حياة حركة التحرر الوطني الافريقية . فالموقف من قضية تقرير مصير شعب السودان ، كان له اثر فعال في مجال الاعتراف بحق شعوب افريقيا في تقرير مصيرها . فبرغم حساسية وتعقد الموقف حول قضية السودان عامي ٥٥ - ١٩٥٦ ، وسيادة المشاعر العاطفية ذات البعد التاريخي لمفهوم «وحدة وادي النيل»، استطاع عبد الناصر كقائد للثورة ، ان يتخطى تعقيدات الوضع وانحاز بكل ثقل مصر وامكانياتها الى جانب شعب السودان في ان يمارس حقه في تقرير مصيره .

وفي مؤتمر باندونج ، الذي لعب عبد الناصر في الدعوة له وخلال انعقاده دورا قياديا فعالا ، خرجت حركة التحرر الوطني الافريقية من مجالها القاري الخاص والمحدود الى مجال عالمي أرحب كان له اثره على تطور النضال الوطني الافريقي نفسه . وبذلك ضرب مخطط الاستعمار الساعي الى محاصرة قضية افريقيا وعزلها عن الحركة العالمية المعادية للاستعمار . وكان لهذا كله اثره الذي لا ينكر على وضع علاقات القوى في القارة .

امكانيات في خدمة الثورة الافريقية :

ظلت اوربا لفترة طويلة من الزمان ، مركزا لعمل القيادات الافريقية الوطنية . وبعد انتصار ثورة يوليو ، ومنذ عام ١٩٥٥ بالتحديد ، اصبحت القاهرة مركزا هاما للوطنيين الافريقيين حيث اسست قيادة ثورة يوليو «الرابطة الافريقية» التي لعبت دورا هاما في مجال الكفاح السياسي لابناء القارة المضطهدين والمنفيين . ونظرا للاهتمام العالمي الذي بدأ يشغله كل ما يحدث في القاهرة ، كان كل بيان يصدره اي مكتب لحركة وطنية افريقية في الرابطة ، يجد طريقه بسهولة الى الرأي العام العالمي مباشرة . كما مدت هذه الرابطة الحركات الوطنية بكادر سياسي وطني درب خلال اقامته بالقاهرة وفي ظل مناخها السياسي المعادي للاستعمار . كذلك يسرت الرابطة للحركات الوطنية الافريقية امكانيات اقامة الاتصالات فيما بينها وبين مواقع النضال على ارض بلادها مما ساهم في تنظيم وتنسيق اعمالها ونشاطها .

لقد اصبحت القاهرة - عاصمة ثورة يوليو المنتصرة - منبرا للحركات الوطنية الافريقية . ومن خلالها ، تعرف الرأي العام العالمي على مكتب الكاميرون الذي ترأسه المناضل الشهيد فيلكس مومي الرئيس السابق لحزب اتحاد شعب الكاميرون . كما تعرف على مكتب اوغندا الذي ترأسه المناضل الشهيد جون كال من حزب مؤتمر اوغندا الوطني ، ومكتب الصومال الذي ترأسه محمود حربي ، ومكتب جنوب افريقيا ومكاتب اتحاد روديسيا ونياسالاند وكينيا وموزمبيق والنيجر ونيجيريا وتشاد وزنزبار .

واذا كانت الرابطة الافريقية قد لعبت دورا هاما في الحركة الوطنية الافريقية ، فلقد كانت اذاعة القاهرة بامكانياتها الضخمة - واحدة من اعظم اسلحة النضال من اجل تحرير افريقيا وتمكين شعوبها من تولي حكم بلادها بنفسها . فقد خصصت القاهرة اذاعة وطنية موجهة «لافريقيا الحرة» ، بلغ متوسط ارسالها ٩٠ دقيقة باللغة الصومالية و٦٠ دقيقة باللغة السواحلي و٣٠ دقيقة باللغة الامهرية و٧٥ دقيقة بلغة الهوسا و٧٥ دقيقة بالانجليزية و٦٠ دقيقة بالفرنسية . وأهمية الدور والتأثير الذي قامت به وأحدثته هذه الاذاعات ، يكشف عنه حديث سلوين لويد وزير خارجية بريطانيا في ذلكالوقت الى صحيفة الاوبزرفر البريطانية ، اذ يقول انه «لفت انتباه الحكومة المصرية الى دور الاذاعة المصرية الموجهة الى شعوب شرق افريقيا» .

كما جعلت القاهرة من ارضها مركزا هاما وأساسيا للتضامن الافريقي والوحدة الافريقية ومسرحا هاما للقاءات التي تدرس قضية الثورة الافريقية بين زعمائها. فبعد انعقاد المؤتمر الاول للتضامن الاسيوي الافريقي في القاهرة في ديسمبر ١٩٥٧ ، عقد في القاهرة وحدها - من ديسمبر ١٩٦٠ وحتى يونيو ١٩٦١ - عدة مؤتمرات ساهمت بمستويات مختلفة في حركة تحرير القارة ، هي مؤتمرات : «اجلوا عن افريقيا» - «مؤتمر نساء افريقيا وآسيا» - «المؤتمر الثالث لشعوب افريقيا» - «مؤتمر تضامن شعوب افريقيا وآسيا» . وتدور مجمل توصيات هذه المؤتمرات حول «خلق منظمة مشتركة لمساعدة حركات التحرر في افريقيا» و«ضرورة القضاء على الامبريالية في افريقيا بكل الوسائل الممكنة السلمية وغير السلمية ، والنظر الى حكومات بلجيكا وفرنسا وبريطانيا وهولنده واسرائيل وجنوب افريقيا والولايات المتحدة والمانيا الغربية ، باعتبارها المخطط الاساسي لسياسة الاستعمار الجديد» .

وايمانا من القاهرة ، بأهمية ودور الكادر الفني الوطني ، فتحت ابواب معاهدها وجامعاتها وكلياتها العسكرية امام ابناء شعوب القارة .. ومن الجدير بالذكر انه في عام ١٩٦٠ كان هناك في فرنسا ٤٠٠٠ طالب افريقي وكان في القاهرة نفس الرقم ٤٠٠٠ طالبافريقي.

وكان لهذا اثره الهام في القضاء الى حد كبير على ما كان يسمى بالولاء الفكري للغرب .

معركة السويس .. والكفاح المسلح :

بفعل النفوذ السياسي والفكري للاستعمار ، ساد المناخ السياسي العام لافريقيا لفترة طويلة ، اعتقاد بصعوبة ـ ان لم يكن استحالة ـ ان تتخذ حكومة افريقية (في اطار الحكم الذاتي او الاستقلال السياسي)، موقفا ما يخرج على ارادة السلطات الاستعمارية . لكن اقدام ثورة يوليو على عقد صفقة الاسلحة مع تشيكوسلوفاكيا ،حطم هيبة وهيمنة الغرب في افريقيا باعتبار طابع التحدي الحاد لهذه الخطوة الثورية ضد محاولات الغرب الاستعماري في ان يفرض ارادته على مسار الثورة وتطورها .

واذا كان الفشل السياسي للاستعمار في معركة السويس ، تعبيرا عن افول النظام الاستعماري نفسه ، فقد كانت نتائج معركة السويس بالنسبة لشعوب افريقيا، تحمل دلالات هامة اخرى :

اولا : ان شعبا صغيرا كالشعب المصري ، يستطيع ان يصمد امام الضغط الاستعماري الى حد المواجهة المسلحة ، **ثانيا :** اثرت عملية مواجهة مصر لمؤامرات الاستعمار بعد العدوان الثلاثي (كالحصار الاقتصادي والحرب النفسية) ، خبرات قادة الحركات الوطنية في افريقيا في مواجهتهم لاساليب الاستعمار ضد الثورات الوطنية في بلادهم . **ثالثا** :ان الاستعمار العالمي غير مستعد للتسليم بسهولة بحق شعب ما في التحرر ، وان ممارسته لهذا الحق سيلقى مقاومة ضارية ، ومن ثم فان طريق الكفاح المسلح هو الطريق الوحيد امام شعب القارة لتحقيق حريتها واستقلالها . وفي هذا المجال يقول عبد الناصر « ان الاستقلال لا يمكن الحصول عليه من الاستعماريين كمنحة وانما ان ينتزع منهم انتزاعا » .

لقد احدثت معركة السويس تغيرا ملحوظا في فكرية بعض قادة دول افريقيا الذين كانوا يؤمنون من قبل بامكانية حل القضية الوطنية في اطار المفاوضات . ومن هؤلاء مثلا جوليوس نيريري الذي وقف بعد ذلك ليقول انه يتهم « كل من لا يحمل السلاح ضد الاستعمار لتحرير بلاده، بالجبن » .

وفي اعقاب فشل العدوان الثلاثي ، شهدت حركة التحرر الافريقية دفعة عظيمة في تطورها . ففي مدغشقر ـ مثلا ـ اشتدت حملات هجوم الوطنيين ضد قوات الاحتلال الفرنسية حتى اضطرت سلطات الاحتلال في ديسمبر من عام ١٩٥٦ الى الغاء الاحكام العرفية التي فرضتها على البلاد منذ عام ١٩٤٧ . وفي نيجيريا دارت عدة معارك عنيفة من عام ١٩٥٨ بين القوى الوطنية وبين سلطات الاستعمار البريطاني . وفي كينيا ، تعاظمت الحركة الوطنية فيها ضد الاستعمار البريطاني الذي استدعى قوات اضافية وواجه الحركة الوطنية فيها بقوة السلاح الى الحد الذي قتل معه ما يزيد على ١١٥٠ وطنيا كينيا، ورغم مصاعب الكفاح الوطني، فلقد تشكل جيش منظم للتحرير من ثلاث تشكيلات في ابردير وجبال كينيا وفي نيروبي العاصمة . وفي الجزائر ، اصبحت قضية تحرير البلاد من الاستعمار الفرنسي قضية الشعب كله بقواه الوطنية المتعددة . وبشكل عام يذكر براجيتسكي في كتابه « تحرر افريقيا » انه في صيف عام ١٩٥٨ بدأ الافريقيون يترأسون حكومات بلادهم بعد ان كان ذلك ممنوعا من قبل

لقد كان صمود الشعب المصري امام اهداف العدوان الثلاثي ، حائلا دون الانتكاس بالحركات الوطنية الافريقية. وعلى العكس ، فبينما لم يكن في عام ١٩٥٥ سوى ٥ دول افريقية مستقلة تمثل ٢٥ بالمئة من سكان القارة، تحقق استقلال ٢٢ دولة افريقية اخرى منذ فشل اهداف العدوان على مصر في ١٩٥٦ وحتى عام ١٩٦٠ . فاصبح ٧٥ بالمئة من سكان القارة يعيشون في ٢٧ دولة مستقلة .

لقد كان من الممكن ـ في الحديث عن دور واثر ثورة يوليو على حركة التحرر الافريقية ـ ان نكتفي بموقفها من قضية تحرير الجزائر . حيث ساهمت مصر الثورة بكل طاقاتها وامكانياتها المادية والسياسية حتى انتصر الشعب الجزائري في عام ١٩٦٢ واصبحت الجزائر يومها مثالا لكفاح شعوب القارة من اجل استقلالها وحريتها وساهمت هي بدورها في تدعيم مراكز الثورة الافريقية واقامة معسكرات تدريب للوطنيين الافريقيين .

منظمة الوحدة الافريقية :

خطط الاستعماريون منذ البداية ، لتجزئة حركة التحرر الافريقي . فروجوا لفكرية انقسامية تحاول تأكيد وتعميق الخلافات والحزازات بين ما اسموه « بافريقيا البيضاء من الشمال » و« افريقيا السوداء في جنوب الصحراء » . واحيانا اخرى بما اسموه « بافريقيا الشرقية» و« افريقيا الغربية » . او « افريقيا الناطقة بالعربية » و « افريقيا الناطقة بالانجليزية »و« افريقيا الناطقة بالفرنسية » .

واذا كان مؤتمر باندونج ومؤتمرات التضامن الاسيوي الافريقي ، مجالا خصبا نمت من خلاله جذور اتجاه الوحدة النضالية بين دول افريقيا ، فلقد نمي هذا الاتجاه في ظل مناخ معاد للاستعمار . ومن ثم كانت قضية الوحدة الافريقية مرادفة لقضية نضال حركة التحرر الافريقية ككل ضد الامبريالية العالمية من اجل تصفية الاستعمار من القارة .

لقد لعبت القاهرة دورا اساسيا في تجمع « الدار البيضاء » الذي تكون عام ١٩٦١ من الجمهورية العربية المتحدة وغانا وغينيا ومالي والمغرب والجزائر (حكومة

الجزائر في المنفى) . وبذلك كانت الصحراء الكبرى — بتعبير عبدالناصر — « جسرا ولم تكن فاصلا ». وبذلك تحطمت اسطورة « افريقيا البيضاء » وافريقيا السوداء » .. الخ .

كذلك كانت القاهرة واحدة من الدول الافريقية الاساسية التي كتلت جهودها من اجل تخطي وضع التجزئة الذي ترتب على خلق اكثر من كيان لتجمع الدول الافريقية حيث وجدت منظمة « الافرو مالاجاش » الى جانب تجمع « الدار البيضاء .

وفي المؤتمر التأسيسي لمنظمة الوحدة الافريقية الذي انعقد في اديس ابابا في مايو ١٩٦٣ ، حدد عبد الناصر وجهة نظر بلاده من اهمية وضرورة « خلق عقل واعصاب للارادة الافريقية الحرة .. عقل يملك الحكمة والشجاعة معا . يقاتل كبناء ويبني كمقاتل » . واكد عبد الناصر انه انطلاقا من ايمان القاهرة بان القارة الافريقية « تواجه اقسى مراحل نضالها » في ظروف يحاول فيها الاستعمار ان يصطنع ادوات جديدة ومبتكرة للتسلل من جديد الى القارة ، تتقدم القاهرة « بغير تحفظات .. بغير مطالب» لتمد يدها مع كل الدول الافريقية لاقامة منظمة الوحدة . واوضح عبدالناصر ان قيام المنظمة لا يعني « لدقيقة واحدة ان تتحول افريقيا الى كتلة دولية او ان ينعزل العمل الافريقي عن حركة التقدم الانسانية كلها » .

ومنذ تأسيس منظمة الوحدة ، عمل الاستعمار على تفتيتها وحاول باكثر من طريقة ان يهاجمها باثارة المشاكل والعقبات في طريقها لهدمها وتفجير الخلافات بين الدول الاعضاء فيها ، لكن جهود القاهرة — مع غيرها — التوحيدية مكن المنظمة من ان تواصل الحياة وان تجتاز الازمات وهجمات الاستعمار العالمي باساليبه المتباينة .

العداء للاستعمار الجديد :

امام اتساع نطاق حركة التحرر الوطني ، لجأ الاستعمار الى اساليب جديدة متعددة يواصل بها سياسة النهب الاقتصادي للقارة . وسوف يذكر التاريخ ان عبد الناصر ونكروما ، كانا اول الزعماء الافريقيين الوطنيين الذين استوعبوا محاولات الاستعمار العالمي للالتفاف من حول الثورات الوطنية لضربها اخر الامر . والواقع ان هذين الزعيمين ساهما بقدر كبير في صياغة مفهوم الاستعمار الجديد وشن حملات الهجوم السياسي عليه .

ان فهم عبدالناصر لخطر الاستعمار واستمرار وجوده في مناطق مجاورة لبلاده ، لم يتوقف عند حدود الوقوف ضد القواعد العسكرية للاستعمار في البلاد الخاضعة لنفوذه. ففضلا عن جهوده ونضاله من اجل تصفية هذه القواعد ومحاربة الاحلاف العسكرية التي حاول الاستعمار فرضها على الدول المستقلة ، وقف عبدالناصر ضد مختلف محاولات الاستعمار الجديد لان يرث مناطق نفوذ الاستعمار القديم من جهة ولان يقيم مناطق جديدة للنفوذ من جهة اخرى. ودور عبدالناصر الحقيقي في هذا المجال ، انه استطاع ان يخلق مناخا سياسيا جماهيريا على مستوى القارة معاديا للاستعمار القديم والجديد .

واذا حاولنا ان نذكر مثلا ، فاننا نشير الى المؤامرة ضد استقلال الكونغو . واذا كانت الجمهورية العربية المتحدة قد ابدت تفاؤلها من ان تتمكن القوات الدولية التابعة للامم المتحدة من حماية استقلال الكونغو وحكومته الوطنية برئاسة لومومبا ، فانها وعت درس التجربة وتمثلته . وفي هذا الصدد يقول عبدالناصر « ان هناك محاولات اصطناع ادوات للاستعمار جديدة ومبتكرة تتسلل حتى وراء اعلام الامم المتحدة التي جرت من تحتها في الكونغو خلال ازمته العنيفة .. تلك المأساة التي راح ضحيتها الثائر الافريقي باتريس لومومبا» . وفي اللحظة التي اكتشفت فيها القاهرة ، خدعة ارسال قوات دولية الى الكونغو كستار لتقويض استقلاله ، سحبت قواتها العسكرية التي كانت ضمن القوات الدولية .. والتي شهدت وكالات الانباء لها بمواقفها الى جانب حكومة لومومبا الشرعية . وقد عبأت القاهرة من امكانياتها وطاقاتها السياسية لحملة استنكار مقتل لومومبا والتنديد بالاستعمار الاميركي والاستعمار البلجيكي من مظاهرات قادها بعض المسئولين الرسميين . واذا كانت قوى التحرر والتقدم في العالم — والقاهرة موقع هام من مواقعها — لم تتمكن من حماية حكومة لومومبا الشرعية ، فلقد انحازت القاهرة بشكل علني وحاسم الى قوى الثورة الوطنية الكونغولية ضد عملاء الاستعمار الجديد ابتداء من ادولا حتى تشومبي وموبوتو . لقد قدمت القاهرة للوطنيين الكونغوليين الامكانيات المادية والعسكرية وساندتهم سياسيا وادبيا وجعلت من ارضها مسرحا لنشاطهم السياسي ومؤتمراتهم الوطنية بل وحاولت بقدر ما تستطيع ان تعمل على التقريب بين وجهات نظرهم عندما نشبت الخلافات الشخصية بينهم . ويوم قام الاستعمار الاميركي والاستعمار البلجيكي — بمعاونة الاستعمار البريطاني — بغزو الكونجو في اواخر عام ١٩٦٤ ، شنت الجمهورية العربية المتحدة حملة هجوم سياسي ضد الغزو تدينه وتستنكره في كل المحافل الدولية . ولسوف يظل تاريخ الحركة الوطنية في افريقيا يذكر لمصر موقفها من العميل مويس تشومبي الذي حاول حضور مؤتمر القمة الافريقي في عام ١٩٦٤ في القاهرة ، حين اعتقلته — سياسيا — وخطت بذلك تقاليد ثورية جديدة في عالم الدبلوماسية الوطنية .

لقد شهدت ارض القارة بعض الصراعات الخاصة بمشاكل الحدود بين بعض الدول الافريقية ، او احتدام الحزازات والخلافات القبلية الى حد الحرب الاهلية .

وهي جميعها ثمرة من ثمار الحكم الاستعماري وتقسيمه لبعض ارض القارة على اساس يذكي من الصراع القبلي وينميه لتبقى هذه المشاكل في نهاية الامر عنصرا من عناصر الهجوم المضاد على حركة التحرر الافريقي بتفتيت قواها وتفرقة جهودها وجرها الى معارك فرعية فيما بينها تحد من طاقاتها وامكانياتها التي يمكن ان تتكتل لمواجهة الاستعمار ومؤامراته ولبناء حياتها الجديدة . ولقد سعت حكومة الجمهورية العربية المتحدة للتوسط باستمرار لاعادة التفاهم الى مناطق الصدام . لكنها لم تتردد في موقفين بارزين في ان تنحاز بوضوح الى جانب القوى الاكثر تقدما حين وصل الصدام الى حد العمل المسلح. فعندما اثيرت مشكلة الحدود بين المغرب والجزائر ، انحازت مصر الى جانب ثورة شعب الجزائر كلية بل وارسلت جزءا من اسطولها البحري وبعض قواتها العسكرية لحماية الثورة الجزائرية . وعندما انفجرت الحرب الاهلية في نيجيريا بعد انفصال الاقليم الشرقي ثم تدخل المرتزقة ، ساندت مصر حكومة نيجيريا الاتحادية سياسيا وعسكريا برغم مشاغلها في ازمة الشرق الاوسط واعبائها .

ومن اشكال الثورة المضادة في افريقيا ، ظاهرة النظم العنصرية التي يتسع رقعتها في جنوب القارةوهذه النظم المتواطئة مع الاستعمار الجديد . وحينما اعلنت حكومة سميث الاستقلال في روديسيا من جانب الاقلية العنصرية ودون مشاركة الافريقيين ، اعلن عبدالناصر في اجتماعه بشباب معسكر حلوان (١٩٦٦) استنكار وادانة الجمهورية العربية المتحدة لهذا الاستقلال غير الشرعي كما اعلن ان القاهرة تعتبر نفسها في حالة حرب مع حكومة روديسيا العنصرية وقرر منع اية سفينة تحمل اية شحنات الى روديسيا ، من المرور في قناة السويس ، وبادرت القاهرة بمطالبة الدول الافريقية بقطع علاقاتها الدبلوماسية مع بريطانيا لتواطئها مع حكومة البيض .

يبقى ان نشير الى الدور الهام الذي لعبه عبدالناصرمن اجل كشف طبيعة الدور الذي تقوم به اسرائيل فيافريقيا كأداةمن ادوات الاستعمار . ولقد حرص عبدالناصر بدأب على ان يكشف دور اسرائيل حتى نجح في عام ١٩٦٦ من ان يغير كثير من زعماء القارة من مواقفهم السابقة تجاه اسرائيل وموافقتهم السابقة على تقبل ما تسميه بالمساعدات والمعونات الاقتصادية التي هي في حقيقة الامر واجهة من واجهات الاستعمار الجديد في محاولته التسلل الى افريقيا .

* * *

تلك هي « البصمات » الهامة التي يمكن ان يقفامامها اي معلق ليميز بين دور وتأثير مصر .. وبين دور وتأثير عبدالناصر – ان كانت عملية التمييز واردة – على حركة التحرر الوطن الافريقية .

ولكننا – في مجالات اخرى – نستطيع ان نلمس بوضوح دور وتأثير عبدالناصر وفق الاطار الذي حددناه في بداية هذه السطور باعتبار « الناصرية » اسلوبا في العمل السياسي .

العلاقة الخاصة .. بالدول الاشتراكية

امام واقع انقسام العالم الى معسكرين : رأسمالي واشتراكي ، حدد عبدالناصر سياسته الخارجية وفق صياغة اخذ بها كثير من قادة الدول الافريقية المتحررة. فشعار « الحياد الايجابي » كان يعني في مفهوم عبدالناصر عدم الانحياز الى اي كتل من الكتل المتصارعة بشكل عضوي . ولكنه موقف لا يسوى في نفس الوقت بين « الصديق » وبين « العدو » ، وانما ينحاز الى جانب المواقف الدولية التي تتفق ومصالح الشعوب المستقلة في الدول الوطنية الجديدة .

ان الخطر الجسيم الذي كان يمثله عبدالناصر في نظر الاستعمار العالمي ، كان يكمن في حقيقة انه « الزعيم الوطني » الذي استطاع ان يخلق هذا « الجسر الخاص » بين عالم التحرر الوطني والمعسكر الاشتراكي . لقد ادرك عبدالناصر بوعي« قوانين » حركة العلاقة بين حركةالتحرر الوطني وحركة الاشتراكية العالمية باعتبارها سندا وحيدا للنضال الوطني وتقدمه . وهو في هذا المجال لا يقف عند حدود « العمل السياسي » وانما يربطهبالعلاقات الاقتصادية في سبيل بناء الاقتصاد الوطني المستقل دعامة الاستقلال السياسي واساسه . ويبرز هنا بشكل خاص اقدام عبدالناصر على توقيع اتفاقية بناء السد العالي مع الاتحاد السوفياتي . فبالاضافة الى ما كان يعنيه ذلك على المستوى الوطني والقومي من مصر ، كان يقدم نموذجا عمليا لشعوب افريقيا وقادتها على طبيعة العلاقة التي يمكن ان تقوم مع المعسكر الاشتراكي وعلى النتائج الايجابية التي يمكن ان تتحقق معها .

واذا كنا قد لمسنا الاثار التي ادت اليها ظاهرة « الانفتاح السياسي » لحركة التحرر الوطنيعلى حركة الاشتراكية العالمية ، في المجالات السياسية والاقتصادية – سواء في مصر او في غيرها من دول افريقيا وآسيا واميركا اللاتينية – فاننا نعتقد ان « البعد الجديد والخاص » الذي اتخذته علاقات الصداقة العربية السوفياتية بعد عدوان يونيو ٦٧ بشكل خاص ، في مجال العمل العسكري ، سوف تفتح آفاقا جديدة لها طابعها الخاص واثارها الهامة على مسار حركة التحرر الوطني من جهة وعلى طبيعة الصراع فيما بينها وبين الاستعمار العالمي من جهة اخرى .

وفي هذا المجال ، حرص عبدالناصر على ان يؤكد اهمية عدم « التورط » في تفاصيل الخلاف العقائدي داخل المعسكر الاشتراكي ، حرصا على تضييق شقة هذا الخلاف باعتباره ثغرة كبيرة داخل صفوف حركة الثورة العالمية المعادية للاستعمار ، شجعت الاستعمار العالمي على المبادرة بشن اكثر من حملة للهجوم ضد دول التحرر الوطني .

اساليب في العمل السياسي :

واذا انتقلنا الى مجال العمل السياسي الداخلي فاننا يمكن ان نرى كثيرا من مناهج العمل في بعض الدول الافريقية ، نستطيع ان نشاهد بوضوح « بصمات » – ان صح التعبير – لبعض اساليب العمل السياسي لعبدالناصر .

فالاتجاه الى احداث « تغيير سلمي » في جهاز الدولة بالاعتماد اساسا على تغيير قياداته ، ظاهرة نلمسها بوضوح في الدول الافريقية بعد ان حصلت على استقلالها السياسي. وينبغي ان نضيف الى هذا ان هذا الاسلوب لم يكن «اختيارا» فحسب، وانما كان ايضا نتاجا لواقع محدد تجري على ارضه حركة الصراع الطبقي وفق طابع خاص ومتميز .

كذلك فان الاتجاه الى « تجميع » القوى الوطنية بقدر الامكان في اطار صياغة « الحزب الواحد » باعتباره تجمعا جماهيريا لمختلف القوى الاجتماعية المناهضة للاستعمار والاقطاع ، ظاهرة كان لعبدالناصر فيها دور المبادرة الاولى . صحيح ان صياغة « الحزب الواحد » الحاكم ، كانت قائمة في المجتمعات الاشتراكية ، وفي عدد قليل من الدول ذات الحكم الدكتاتوري كاسبانيا ، ولكنها في الحالتين تقوم وفق مقتضيات ومعطيات محددة ، غير انها في الدول الوطنية قامت على اسس مختلفة ووفق معطيات اخرى مختلفة ، لكن عبدالناصر ربط – في الستينات – بين ضرورة وجود هذا التجمع الجماهيري وبين ضرورة وجود « الحزب » الطليعي داخله . وتلك قضية اخذ بها وادركها بعض قادة افريقيا ، ولكن بعضها الاخر اكتفى بالصياغات الاولى لهذه الظاهرة عند حدود « التجمع الجماهيري » – دون التسليم بضرورة « الحزب الطليعي » – كما حدث في مالي مثلا .

ويبقى دور عبدالناصر في الربط بين « الثورة الوطنية» و« الثورة الاجتماعية » بانتقال القيادة الوطنية من ذلك الموقع الى مواقع اشتراكية ، واحدا من ابرز واهم تأثيرات عبدالناصر على حركة التحرر الافريقي . وبمابدات هذه القضية وفق صياغة « الطراز القومي للاشتراكية » بمفهوم الاشتراكية العربية الذي كان له آثاره في بروز صياغات مماثلة « كالاشتراكية الافريقية » – مثلا – في السنغال وكينيا وتنزانيا .. الخ ، لكن نضج العمل الثوري وتطور خبرته فرض صياغة متقدمة تؤكد ان الاشتراكية واحدة ولكنها عند التطبيق يمكن ان تختلف وفق الظروف والواقع الخاص لكل بلد على حدة برغم انها – جميعا – تقوم على نفس الاسس التي اهمها : الغاء استغلال الانسان للانسان . هنا تحددت صياغة «التطبيق العربي للاشتراكية » او الاشتراكية العلمية وفق مقتضيات الواقع الخاص في مصر ، مثلما تحددت غيرها المماثلة في غينيا وفي غانا ومالي (قبل الانقلابين ضد نكروما وموديبو كيتا) .



وبقدر ما كان عطاء عبد الناصر لحركة التحرر الوطني العربية والافريقية .. كبيرا ، بقدر ما كانت وفاته فادحة . « فالافاق الجديدة » التي تفتحت عليها حركة التحرر الافريقية ، تدين لدوره بالكثير مثلما تدين لدور غيره من القادة الافريقيين المناضلين . لكن دوره الهام يكمن في حقيقة انه كان رائدا .

القاهرة — **حسين شعلان**